الجانب النفسي في حذف عامل المفعول به

علي محمد نور المدني

أستاذ النحو المشارك ـ جامعة البحرين

المشكلة المحورية التي يعالجها علم اللغة النفسي هي كيفية إنتاج اللغة ـ بوصفها سلوكا بشريا ـ وكيفية فهمها في سياق التواصل اليومي المتبادل بين الناس.

إن كل تواصل لغوي يعتمد على أربعة عناصر على الأقل:

١- فكرة مكنونة في النفس.

٢- متحدث (مرسل) ينوي نقل الفكرة إلى غيره.

٣- مضمون الفكرة ظاهراً على هيئة كلام.

٤- مستمع (مستقبل) يفهم محتوى الفكرة ويفسره.

وكل عنصر من هذه العناصر يمر بمراحل ذهنية معقدة. ومع ذلك لا يتم الفهم كاملاً لدى الناس(١)، وإنما أغلب الذي يفهم ويصل إلى المستمع هو ظاهر الألفاظ، ومعانيها السطحية مجردة من العواطف والمشاعر الداخلية، والشحنات النفسية الكامنة في باطن فؤاد المتحدث (المرسل)؛ ذلك أن الكلام الظاهر يعجز عن حمل الانفعالات النفسية إلى المستمع إلا قليلاً منه مما قد تظهر آثاره بادية على وجه المتكلم أو حركاته، أو مستوى صوته من رفع وخفض يصحب الكلام على النحو الذي طبع عليه البشر.

ويحاول علم اللغة النفسي ـ في أحد فروعه ـ تحليل الكلام بالاعتماد على علم اللغة بفروعه، وعلم النفس بفروعه؛ وذلك بغية الوصول إلى فهم أتم للمعاني.

وقد كثرت الدراسات التطبيقية في علم اللغة النفسي لدى الغربيين(٢)،

(١) نقلاً ـ بتصرف ـ عن Glucksberg, Sam and Danks, Joseph, Experimental Psycho-linguistics An Introduction, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, New Jersey, P. l.

(٢) انظر مثلاً Garnica, Olga (editor), Papers In Psycholinguistics And Sociolingu-istics, The Ohio State University, Ohio, 1977.

وللتعرف على مزيد من الدراسات الغربية في هذا انظر Prucha, J. Information Sources In Psycholinguistics, Mouton, The Hogue, Paris, 1972.

ولكنها تكاد تكون معدومة في الدراسات العربية[١]، بل إن المراجع العربية في علم اللغة النفسي العام - على أهمية هذا الفرع اللغوي الحديث - قليلة جداً ومنها: كتاب قيم بعنوان: علم اللغة النفسي، لعبد المجيد سيد أحمد منصور[٢].

وهذه الدراسة محاولة لبيان بعض الإيحاءات النفسية الكامنة في حذف العامل في مواضع معينة من الجملة العربية، تم انتقاؤها بوجه خاص لاحتمال تسليط التحليل النفسي عليها، وذلك يعنى أن الاهتمام البحثي ليس منصرفاً إلى استقصاء ظاهرة الحذف وأحكامه في اللغة العربية، وإنما هي محاولة لتحليل بعض مواضع حذف العامل في الجملة العربية – وما يستلزمه من تقدير للمحذوف في الدرس النحوي – تستهدى بعلم اللغة النفسي؛ لربط القاعدة النحوية بسلوك المتكلم والمستمع ودوافع كل منهما، وحالته النفسية أثناء الكلام والاستماع.

ويحرص المتكلم أو الكاتب ألا يحذف شيئاً من اللغة وذلك بغية أن تكون العبارة المسموعة أو المقروءة واضحة المقاصد. ومع ذلك فقد كثر الحذف في الكلام العربي، وليس ذلك مما يعيب اللغة العربية، إذا كان المعنى واضحاً مع الحذف؛ بل قد يكون الحذف أوجز وأبلغ كما سيظهر لاحقاً من موقف ابن مضاء القرطبي.

والحذف مفسر بالأصل في الكلام، بل نص بعض النحاة على أن "المكمل أصل والمختصر فرع"[٣]. ولكي لا يبعد المحذوف عن الأصل فرضوا تقليل مقدار المقدر ما أمكن؛ لتقل مخالفة الأصل[٤]، أي أن تقدير المحذوف يجب أن يكون بأقل عدد ممكن من الكلمات.

(١) للباحث دراسة بعنوان: البدل في الجملة العربية، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٨٦، نوفمبر ١٩٩٩م، ص ٢٠٥ – ٢٢٢.

(٢) نشرته جامعة الملك سعود، بالرياض، ١٩٨٢م.

(٣) انظر شرح التسهيل لابن مالك، تح. عبدالرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٠م، ج٢ ص١٢١.

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، ج٢ / ٦١٥.

ويفرق الدكتور فاضل السامرائي بين الحذف وعدم الذكر ذاهباً إلى أنه " لو جعلنا عدم الذكر حذفاً لكانت كل جمل العربية فيها حذف بلا استثناء ؛ لأن كل جملة يمكن أن تذكر فيها أموراً لا تذكرها في أخرى، معنى ذلك أن يكون الأصل الحذف وليس الذكر"(١).

فليس الحذف ـ إذن ـ هو الأصل، بل الأصل في الكلام أنه لا يحذف منه شيء ما لم يدل عليه دليل، أو تشير إليه قرينة؛ إذ من غير هذا الضابط يقع اللبس في المعنى المراد. ولذلك أصر النحاة على ذكره، وتكراره في مواضع كثيرة ومناسبات عديدة.

واللبس أساساً يدخل في السلوك النفسي لدى متلقي اللغة بوصفها وسيلة للتفاهم بين المرسل والمتلقي، فإذا لم يكن المعنى واضحاً لدى المتلقي فإنه يعاني من إعمال الفكر في فهم الفكرة. وربما تاه في تقليب نظره متأملاً المعنى المراد، وعندئذ قد يعوقه إشكال في تقدير محذوف عن متابعة تالي الخطاب.

ولذلك فلا بد ـ في فهم اللغة ـ من تجاوز البنية السطحية (Surface Structure) في التراكيب إلى البنية العميقة (Deep Structure) التي يمكن من خلالها الوصول إلى المحذوف من الكلام، ومن ثم تقديره على نحو يوافق سلامة القواعد النحوية التي يفهمهما المتكلم والمستمع (المرسل والمستقبل).

ومن هنا عني النحاة العرب قديماً ـ والتحويليون من اللغويين في هذا العصر ـ بما عرف حديثاً بالمعنى العميق، وذلك من منظور أن اللغة سلوك قائم على أصول نفسية عميقة من التفكير في استرجاع الكلمات وانتقائها لمعان مقصودة، وتركيبها في الشكل المراد، ومن ثم إخراجها في صورة جمل مترابطة تفضي إلى الإبانة عما يجول في نفس المرسل.

(١) الجملة العربية تأليفها وأقسامها، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢م، ص ٩٤.

والحذف ـ وما يتبعه من تقدير المحذوف ـ قائم أساساً على أمرين مفسرين بالجانب النفسي: أولهما شعور المتكلم بأفضلية الحذف والأنس إليه، يقول عبد القاهر الجرجاني: " . . ما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"(١).

وثانيهما يقوم على فهم البنية العميقة ـ كما أسلفنا ـ لأن التركيب المتضمن حذفاً لا يفهم معناه ما لم يتم التأمل في أصل بنيته، والإحاطة بما اعتراه من حذف.

ومن النحاة المجددين الذين تناولوا موضوع الحذف ابن مضاء القرطبي، وقد قسم المحذوفات إلى ثلاثة أقسام فقال: "واعلم أن المحذوفات في صناعتهم على ثلاثة أقسام: محذوف لا يتم الكلام إلا به، حذف لعلم المخاطب به، كقولك لمن رأيته يعطي الناس: زيداً أي أعط زيداً، فتحذفه وهو مراد، وإن أظهر تم الكلام به"(٢). ثم مضى ابن مضاء يستشهد على هذا النوع من الحذف ببعض الآيات من كتاب الله، وانتهى إلى أن الحذف في مثل هذا النوع أوجز وأبلغ.

ثم ذكر القسم الثاني وهو "محذوف لا حاجة بالقول إليه، بل هو تام دونه، وإن أظهر كان عيا، كقولك: أزيداً ضربته؟ قالوا: إنه مفعول بفعل مضمر تقديره: أضربت زيداً؟ وهذه دعوى لا دليل عليها، إلا ما زعموا من أن "ضربت" من الأفعال المتعدية إلى مفعول واحد، وقد تعدى إلى الضمير، ولابد لزيد من ناصب، إن لم يكن ظاهراً فمقدر، ولا ظاهر، فلم يبق إلا الإضمار! وهذا بناء على أن كل

(١) دلائل الإعجاز، تح. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ١٩٩٢م، ص١٥٢-١٥٣.

(٢) الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي، تح. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٧١.

منصوب فلا بد له من ناصب"(١).

ثم ذكر القسم الثالث فقال: "وأما القسم الثالث فهو مضمر إذا أظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره، كقولنا: يا عبدالله. وحكم سائر المناديات المضافة والنكرات حكم "عبدالله"، و"عبدالله" عندهم منصوب بفعل مضمر، تقديره: أدعو، أو: أنادي، وهذا إذا أظهر تغير المعنى، وصار النداء خبراً"(٢).

وابن مضاء مقتنع بالقسم الأول من الحذف؛ لأنه أوجز وأبلغ، ولكنه ينكر القسمين الثاني والثالث معتمداً على دعوته إلى إلغاء نظرية العامل.

ويلاحظ أثر السياق جلياً في فهم المعنى من قوله - في القسم الأول - "لمن رأيته يعطي الناس: زيدا". وفي تفسير البنية العميقة يظهر تقدير المحذوف واضحاً، أي أعط زيداً، ولكن الذي لا يبدو جلياً هو واقع الحال حين العطاء أياً كان هذا العطاء. إذ قد ينطلق المتكلم بدافع نفسي شفقة على زيد؛ لئلا يفوته ذلك العطاء، فقد يكون المتكلم مستعجلاً، إذا كان ما يعطى موشكاً على النفاد، فعندئذ لا يكون الإيجاز أبلغ، بل يكون واجباً، ولو شط بنا الخيال قليلاً لقلنا: إن المتكلم حينئذ ربما أكد كلامه معنوياً بقوله: زيداً زيداً، وكل ذلك أوجه يحتمله التأويل اللغوي النفسي.

ومما يسترعي النظر هاهنا أن صيغة الأمر "أعط" المتعدي إلى غير المتكلم، يتوارى وراءه دافع نفسي غير ذلك الدافع، فى حال تعدية الفعل إلى المتكلم، في نحو "أعطني"، وهو ليس محل التمثيل هنا؛ لأنه استوفى مفعوله، ولكن أعطني يشير إلى طلب المتكلم لنفسه، وأما "أعط" - المقدر قبل "زيداً" - فهو يشير إلى طلب لغير المتكلم، وشتان الطلب للنفس والطلب لغيرها، فالثاني غالبا لا يقيده

(١) نفسه ص ٧٢.

(٢) نفسه ص ٧٢.

تذلل شخصي، في حين أن الأول خاضع متذلل في الطلب.

ورب قائل يقول إن في مثل هذا التحليل بعداً، أو إنه قائم على مثال افتراضي.

والجواب: إن اللغة مهارة سلوكية نفسية(١) للتعبير عن العواطف والحاجات بألفاظ وتراكيب مختلفة، محكومة بدوافع نفسية، ولكنها مقيدة بقواعدها النحوية والصرفية والصوتية والبلاغية والدلالية(٢). والسلوك النفسي لا يصدر إلا عن دوافع، والدوافع قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، وتكون شعورية أو لا شعورية(٣) واللغة بهذا المفهوم المرتبط بالسلوك النفسي هي وسيلة التواصل والتفاهم بين الناس. ولذلك فمجال تحليل الكلام مفتوح بحكم احتمال عدم فهم السامع لمخاطِبه (بكسر الطاء) فهما تاماً، لأنه قد يفهم ظاهر الكلام بحكم سلامة التركيب لغة ونحواً. ولكن ذلك لا يعني - في نظر بعض العلماء - أن التواصل تام؛ لأن عملية التواصل ليست مقصورة على العلاقة الظاهرية بين المتكلم والسامع فحسب، بل هناك عامل آخر غير ظاهر، هو الجانب النفسي(٤). ولذلك يصرح بعض اللسانيين أن مصطلح "المعنى" دلالته مقيدة بنظرية السلوك اللغوي النفسي العام(٥). ولما كان الأمر كذلك فإنه يصعب الإحاطة بالبنية العميقة، وقد يترتب

(١) انظر للتفصيل في موضوع: اللغة بوصفها مهارة سلوكية: Herriot, Peter, An Introduction To The Psychology Of Language, Methuen and Co Ltd, London, pp.21-24.

(٢) انظر شروط صحة الجملة في كتاب: الجملة العربية والمعنى، فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت ٢٠٠٠م، ص٧ وما بعدها. وراجع الفصل الثالث من كتاب ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص١١٥-١٥١.

(٣) انظر: أصول علم النفس، أحمد عزة راجح، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٧٣م، ص١٠٨ و١٠٩ وانظر: اسس علم النفس العام، سعد جلال، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٢٩٨.

(4) Miller, George, Communication, Language and Meaning, Basic Books, Inc, Publishers, New York, 1973, p. 5.

(5) Platts, Mark; Ways of Meaning, Routledge and Kegan Paul, London, 1997, p. 58.

على هذه الصعوبة تعدد في تأويل المعنى. ولكن للقواعد النحوية أثر ظاهر في تحديد المعنى، وبخاصة في حالات الحذف؛ لأن الحذف تحكمه القواعد النحوية، ولذلك لا يجوز حذف شيء من الكلام ما لم يدل عليه دليل كما أسلفنا من قبل، بل قد يستغنى عن اللفظ لوجود قرينة لفظية أو حالية، وكلتاهما مرتبط بالجانب النفسي، وربما كانت القرينة الحالية أكثر اتصالا بالجانب النفسي؛ لأنها تعني الصفة أو الوضع الذي يكون عليه المخاطب عند مخاطبته بالعبارة التي يكون فيها حذف، بحيث تغني حاله عن اللفظ بالمحذوف، وتكون دليلاً عليه دون سبق دليل لفظي(١)، ولا يكون للإثبات عندئذ أهمية إلا للتأكيد، قال ابن يعيش: "إن قرائن الأحوال قد تغني عن اللفظ؛ وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فإن أتى باللفظ المطابق جاز، وكان كالتأكيد، وإن لم يؤت به فللاستغناء عنه، فلذلك يجوز حذف العامل"(٢). وقد تم التمثيل لذلك سابقاً فيما اقتبسناه من ابن مضاء في قولك: زيداً لمن رأيته يعطى الناس بل قد يكون الحذف أفصح من الإثبات، ولذلك قال الجرجاني في الحذف: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"(٣).

وقد تم التمثيل لمثل هذا النوع من الحذف سابقاً، فيما اقتبس من ابن مضاء في قولك: "زيداً"، لمن رأيته يعطى الناس. ونضيف إليه الأمثلة التالية المقتبسة من المفصل للزمخشري وشرحه لابن يعيش:

(١) الحذف في الأساليب العربية، إبراهيم عبدالله رفيدة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ٢٠٠٢م، ص٤٧.

(٢) شرح المفصل ج١ / ص ١٢٥.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

١- قولك: "زيداً" لمن أخذ يضرب القوم، أو قال: أضربُ شرَّ الناس والتقدير: اضربْ زيداً فهو شر الناس.

٢- ولمن قطع حديثه: "حديثَك"، أي أكمل حديثك.

٣- ولمن سدد سهماً نحو القرطاس: ... القرطاسَ أي يصيب القرطاس، وكأنك واثق من تصويبه.

٤- ولمن علمت أنه يريد مكة: ... "مكةَ والله" أي يريد مكة.

٥- وسمع أبو الخطاب بعض العرب، وقيل له: لم أفسدتم مكانكم؟ فقال: .. "الصبيانَ بأبي"، أي لُم - (الأمر من لام) - الصبيان.

٦- وقيل لبعضهم: أما بمكان كذا وَجْذٌ؟ فقال: بلى... "وجاذا كثيرة"، أي أعرف به وجاذا[١]، والوجاذ: جمع وَجْذَة وهو النقرة في الجبل تمسك الماء[٢].

ومثل هذا كثير في العربية وسماه الزمخشري "المنصوب بعامل مضمر مستعمل إظهاره[٣]، نقله من سيبويه من قوله: "هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل"[٤]. وبإمعان النظر في هذه الأمثلة قد لا نستشعر الأثر النفسي - الذي تحدثه القرائن وواقع الحال - واضحا صارخا في كل مثال على حد سواء، ولكنه محسوس ملموس، يظهر في صورة انطباعات، قد تكون خالية من الانفعالات والشحنات العاطفية، وقد تكون مصحوبة بها.

ولا يمكن الجزم بأثر نفسي واحد ينفذ إلى كل الحالات، بل الأثر يتفاوت تبعا

(١) انظر المفصل في علم العربية للزمخشري، دار الجيل، بيروت، د.ت. ص ٣٤ و ٣٥، وشرحه لابن يعيش ج١ ص ١٢٥ و١٢٦.

(٢) انظر لسان العرب (وجذ).

(٣) المفصل في علم العربية، ص ٣٤.

(٤) الكتاب ج١ /١٢٨.

لاختلاف مضامين الجمل، واختلاف واقع الحال في كل منها، وموقف القائل والسامع، وعلاقة كل منهما بواقع الحال. فالقائل: ... "زيدا" ـ في الجملة الأولى لمن أخذ يضرب القوم، أو سمعه يقول: أضربُ شرَّ الناس ـ مشحون بمشاعر الحنق والغضب على زيد. وأما القائل: ..." حديثك "، في الجملة الثانية فهو متحفز نفسيا لسماع بقية الحديث المقطوع. والحوافز ـ كما يرى علماء النفس ـ هي التي توجه سلوك الفرد(١)، فالحافز هو الذي يحمل السامع هنا على الطلب بإكمال الحديث في كلمة واحدة "حديثك" ليعطي الأهمية للحديث وليس للفعل.. ويكون القائل: ... القرطاس في الجملة الثالثة على ثقة من إصابة الرامي الهدف، ومترقبا لرؤية ذلك، فهو يشترك مع القائل في المثال السابق في الشعور بالترقب والتحفز لما يقع. و في المثال الرابع لا يبدو على القائل غير انطباعات عادية يتحسسها القائل من واقع الحال، ويتوثق منه فيؤكد كلامه بالقسم قائلاً: "... مكة والله".

ويبدو موقف القلق والخوف من الاتهام بإفساد المكان واضحاً في المثال الخامس، الذي نقله أبو الخطاب من بعض العرب ممن دفع عن نفسه الاتهام بإيقاع فعل اللوم ـ المضمر ـ على "الصبيان"، وهو مفعول به مؤكد بالقسم بالأب ـ "الصبيان بأبي" وحذف عامله ـ (لُمْ) ـ مقصود للإسراع في مبادرة القائل إلى دفع الاتهام عن نفسه.

ولا أحسب أن اجتماع الحذف مع القسم بعد المحذوف جاء استجابة لمثير لغوي مجرد هو جواب الاستفهام، بل هو استجابة لمثير لغوي نفسي أحدث انفعالاً لدى المسئول، فكان جوابه معتمداً على أسلوب انفعالي، استند إلى الإيجاز (بحذف العامل) و القسم لتأكيد رد الفعل في دفع الاتهام المتضمن في السؤال.

(١) المدخل إلى علم النفس، عبدالرحمن عدس، ومحيي الدين توق، دار جون وايلي، نيويورك، ١٩٨٦م، ص ١٨٨.

تقول الدكتورة نوال محمد عطية: "تختلط الانفعالية [أي اللغة الانفعالية] بعبارات الفكر، وتؤثر فيها تأثيرا واضحا.. والفرد في أحاديثه وكتاباته إنما يستخدم اللغة الانفعالية مختلطة باللغة النحوية المنظمة تنظيماً منطقياً، فمثلاً قد يستخدم قبل العبارة اللفظية أو في نهايتها لفظا معينا يتمثل في القسم أو التعجب أو غير ذلك من ألفاظ يقصد بها التأثير الانفعالي في القارئ أو السامع"(١).

وفي المثال السادس يتجلى انطباع السعادة والسرور بمساعدة المسؤول للسائل عن طريق الإجابة المختصرة بحذف عامل المفعول به، فهو ليس معنيا بفعل المعرفة ـ أعرف ـ بل الاهتمام منصرف بوجه خاص إلى "الوجاذ"، ولذلك فقد حذف العامل. وكل ذلك قائم على الاستجابة لمثير دفع المسؤول إلى إظهار معرفته بالوجاذ خدمة للسائل.

ولقد فطن ابن مضاء ـ في القرن السادس الهجري ـ إلى هذا الجانب النفسي في قواعد الحذف، فقال في تعليقه على القسم الثالث من أقسام الحذف ـ مما سبق الوقوف عليه ـ وهو المحذوفات وجوباً: "وهذه المضمرات ـ التي لا يجوز إظهارها ـ لا يخلو من أن تكون معدومة في اللفظ، موجودة معانيها في نفس القائل، أو تكون معدومة في النفس، كما أن الألفاظ الدالة عليها معدومة في اللفظ، فإن كانت لا وجود لها في النفس، ولا للألفاظ الدالة عليها وجود في القول، فما الذي ينصب إذا؟ وما الذي يضمر؟ ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال"(٢).

ويمثل ابن مضاء على مقولته هذه بالمنادى، فالمنادى منصوب بعامل محذوف، فعندما يقول القائل: يا عبدالله يعني (أدعو) أو (أنادي)(٣).

(١) علم النفس اللغوي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٩٨.

(٢) الرد على النحاة ص ٧٣.

(٣) للتوسع في تقدير عامل الحذف في المنادى: انظر: الحذف في المثل العربي، عبد الفتاح أحمد الحموز، دار عمار للنشر، عمان، ١٩٨٤، ص ٢٤١ وما بعدها.

وبذلك يتغير تركيب الجملة، ويتغير الأسلوب، فالنداء إنشاء لا خبر، ولو ذكر الفعل لأصبحت الجملة خبرية.

ولذلك يرى النحاة أن حذف هذا العامل واجب فى هذا الباب، ويرون أن حرف النداء ناب عنه، وإنما وجب حذفه - عندهم - حتى لا يجمع بين النائب والمنوب عنه(١).

ولكن هل يضمر المتكلم في نفسه هذا المحذوف؟ الواقع أنه لو تأمل كل متكلم ذلك في نفسه لوجد أنه لا يفكر في هذا المحذوف أبدا، وهو يدرك تمام الإدراك أنه إذا قال: يا عبدالله، فإنه على يقين أنه ينادي عبدالله، من غير أن يشغل نفسه ويشاغب ذهنه ليقدر المحذوف في عقله الباطن.

وأما الذين يشغلون أذهانهم في تقدير المحذوف فهم النحاة الذين يؤمنون بضرورة وجود عامل ينصب المنادى على نحو ما هو مبسوط في كتب النحو(٢).

وإذا كان المحذوف غير موجود في نفس القائل، والكلام مفهوم بدونه، والقائل هو مصدر الكلام، فما الداعي إذا إلى بيان تقديره؟ الحق أن الصناعة النحوية بقوانينها وقواعدها هي التي فرضت هذا التقدير، بناء على نظرية العامل التي تستوجب أن كل منصوب له ناصب.

ولا جدال أن المتكلم أو القائل يفكر في تركيب الجملة قبل النطق بها، ولا يظهرها إلا بعد عمليات ذهنية معقدة - كما تقدم -، وإن كان الكلام يتتابع سريعا على لسانه. ولكن هذا التفكير ليس على درجة واحدة من الإمعان، فبينما يمعن المتكلم في التفكير في جملة معقدة تتجاذبها عدة قواعد لاستيفاء أركانها وما

(١) انظر: النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٨٥.

(٢) انظر تفصيل ذلك في التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، تح. عوض القوزي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٩٠م، ج١ ص ٣٢٧.

يعتريها من تقديم وتأخير، وحذف وتقدير ـ فإنه في أسلوب النداء قد لا يلزمه ذلك، على النحو الذي تقدم ذكره؛ وذلك لأن حذف عامل المنادى صار مألوفا لكثرة الاستعمال وسرعة انصراف الذهن إلى تقديره ومعناه، "فشيوع اللفظ الواحد... يزرع الوقع في الآذان فتألفه، والدلالة في الأذهان فتعرفها، حينئذ تجد الألسن الراحة في النطق المختصر فتعدل عن النطق التام"(١).

وقد قرر سيبويه هذه الحقيقة قائلاً: "الشيء إذا كثر في كلامهم، كان له نحو ليس لغيره مما هو مثله"(٢).

والاحتجاج للحذف بكثرة الاستعمال والشيوع والألفة احتجاج مقبول منطقياً ونفسياً على حد سواء، ولذلك فقد اعتمده النحاة لتفسير الحذف في مواضع كثيرة، فهذا ابن هشام يعتمد على هذه الحجة في حذف المبتدأ، وفى حذف عامل المفعول به قبل أسماء الديار، يقال دارمية وديار الأحباب، رفعاً بإضمار هي ونصبا بإضمار أذكر. [ثم يفسر ذلك بقوله:] فهذا موضع أُلِفَ فيه الحذف"(٣).

وإذا كان حذف العامل قبل أسماء الديار مألوفاً، فحذفه قبل المنادى أكثر ألفة وشيوعاً؛ لأن النداء في اللغة كثير الاستعمال. والنداء من الأساليب الإنشائية غير الطلبية التي تصدر غالبا عن انفعال، ولعل هذا الانفعال هو الذي يفسر حذف عامل المنادى؛ لأن المتكلم قد لا يدرك المنادى إذا قال: أدعو أو أنادي زيداً، حين يكون زيد منطلقاً على عجل، بل قد يحذف عندئذ حرف النداء ويكتفي بالمنادى.

ومن المواضع التي يظهر فيها العامل النفسي واضحا في الحذف حذف عامل المفعول به في باب الاشتغال من نحو: أزيداً ضربته؟ وهو القسم الثاني من

(١) أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي مختار طليمات، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد ١٥، دبي، ١٩٩٧م، ص٣٠.

(٢) الكتاب، ج٤/ ٤٠٥.

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٢/ ٦٠١.

المحذوفات عند ابن مضاء كما تقدم. ولعله يمكن القول في مثل هذا الاستعمال إنه يحمل إيحاء نفسياً ظاهراً، بل هو مقصود لتوجيه النظر إلى المفعول به من خلال تقديمه في ظاهر الكلام، ولو ذكر العامل ههنا لتوارت هذه الأهمية. ولذلك ذهب النحاة ـ هنا ـ إلى أن العامل محذوف وجوباً.

ولا شك أن الكلام يبدو قبيحا إذا أظهر العامل في هذا الباب وهذا القبح الذي يتجنبه المتكلم، مفسر بسلوكه النفسي، في تذوق جماليات التركيب، ولذلك جزم النحاة بوجوب حذف هذا العامل(١).

ويظهر الجانب النفسي واضحاً جلياً في حذف عامل المفعول به في التحذير والإغراء، بل تلح الحاجة إلى حذفه في حالات الخوف والقلق والتوتر والترقب ونحوها على ما يبدو في قولك: . ."السيارة" في تحذير من يهم بعبور شارع عام وسيارة قادمة بسرعة عالية. كلمة واحدة فقط ترتفع بصوت عال وبنبرة شديدة التوتر؛ لتحقيق المطلوب وهو تحذير المخاطب بها من أمر خطير مكروه ليتجنبه. ولا جدال في أن القائل في مثل هذه الحالات تهيمن عليه شحنة انفعالية عظيمة، لا مناص له من تفريغها في كلمة واحدة ـ "السيارة" ـ غير متأمل في الجملة التحذيرية وشروط تركيبها، ولا آبه إلا بإنقاذ روح من موت محقق، ولذلك لا يكتفي بمجرد التحذير بل قد يؤكد اللفظ مرتين أو ثلاثة: " . .السيارة السيارة السيارة"، لكي يضمن وصول التحذير إلى المحذر.

فالقائل المحذِر هنا إذن غير معنى بالنظر في جواز حذف عامل المفعول به وهو "احذر"، ولكنه مع ذلك يحذفه وجوبا من غير تفكير في حكم الحذف؛ لأن واقع الحال يفرض عليه منتهى الإيجاز لإيصال تحذيره إلى المخاطب في الحال.

(١) انظر مثلا: المقرب لابن عصفور، تح. أحمد عبدالستار الجواري وعبدالله الجبوري، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، بغداد، ١٩٧١م، ص٩٤. وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ج٢ ص٥.

ولو حللنا موقف القائل في الجملة السابقة في ضوء معطيات علم النفس، لتبين لنا أن القائل موجه بدافع انفعالي(١) مبنى على استجابة (فسيولوجية) ونفسية قوية نتيجة لإدراكه لمثير(٢) ـ وهو الشعور بالخطر ـ أدى إلى رد فعل سريع هو التحذير بكلمة واحدة.

هذا الشعور بالخطر يسميه علماء النفس رغبة شعورية، ويرون أن هذه الرغبة الشعورية جانب من السلوك يتأثر بالدوافع(٣)، والدافع المؤثر في قائل كلمة التحذير السابقة دافع انفعالي كما تبيّن.

ويتضح من هذا كيف يتحكم السلوك النفسي في التعامل مع القواعد النحوية، بل قد يفضي هذا السلوك إلى إغفال قواعد اللغة إن دعت الحاجة إلى ذلك، أو التصرف فيها بما تفرضه قرائن الأحوال.

ويتبين مما تقدم أن حذف العامل في الجملة العربية قد يشغل ذهن كل من المتكلم والسامع، كما بدا في حذف عامل المفعول به أحياناً، وقد لا يشغل بال أحدهما، كما ظهر في حذف العامل في باب النداء أو التحذير والإغراء أحياناً. وقد يعمد المتكلم إلى حذف العامل لنفوره من إثباته للسبب الذي تقدم ذكره. وكل ذلك محكوم بواقع الحال وما يصحبه من قرائن.

وبعد فالكلام في الحذف والمحذوفات يطول، ولم تستهدف هذه الدراسة تتبعها وإنما كان القصد تسليط بعض مفاهيم علم اللغة النفسي على قواعد اللغة العربية في مواضع منتقاة من حذف الفعل في الجملة العربية، اجتزأنا بها لبيان بعض الإيحاءات النفسية الكامنة وراء الحذف، مما أحسب أنه لم يعالجه الدارسون من قبل.

(١) انظر الفصل الخاص بالدوافع الانفعالية في كتاب: الدافعية والانفعال، إدوارد مواري، ترجمة: أحمد عبدالعزيز سلامة ومحمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٠١-١٣٨.

(٢) نفسه ص ١٠١ و ١٠٢.

(٣) نفسه ص ٢٩.

المصادر والمراجع

* أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي طليمات، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد ١٥، دبي، ١٩٩٧م.
* أسس علم النفس العام، سعد جلال، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، ١٩٨٠م.
* أصول علم النفس، أحمد عزة راجح، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، الاسكندرية، ١٩٧٣م.
* الأصول في النحو،لابن السراج، تح. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٥م.
* أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
* البدل في الجملة العربية، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، على المدني، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد ٨٦ القاهرة، ١٩٩٩م.
* التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، تح. عوض القوزي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٩٠م.
* الجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢م.
* الجملة العربية والمعنى، فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٠م.
* الحذف في الأساليب العربية، إبراهيم عبد الله رفيدة، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ٢٠٠٢م.

* الحذف في المثل العربي، عبد الفتاح أحمد الحموز، دار عمار للنشر، عمّان ١٩٨٤م.
* الدافعية والانفعال، إدوارد موراي، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ومحمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٨م.
* دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تح. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ودار المدني بجدة، ١٩٩٢م.
* الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي، تح. محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩م.
* شرح التسهيل، لابن مالك، تح. عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، ١٩٩٠م.
* شرح الكافية لرضي الدين الأستراباذي، تح. يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، ليبيا، ١٩٧٨م.
* شرح المفصل، لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
* ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الاسكندرية، ١٩٩٩م
* علم اللغة النفسي، عبد المجيد سيد أحمد منصور، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٢م.
* علم النفس اللغوي، نوال محمد عطية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٥م.
* الكتاب، لسيبويه، تح. عبد السلام محمد هارون،عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣م.
* لسان العرب، لابن منظور، تح. عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٨٦م.

* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

* المدخل إلى علم النفس، عبد الرحمن عدس ومحيي الدين توق، دار جون وايلي، نيويورك، ١٩٨٦م.

* المفصل في علم العربية، للزمخشري، دار الجيل، بيروت، د. ت.

* المقرب، لابن عصفور، تح. أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٧١م.

* النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.

* Garnica, Olga (editor), Papers in Psycholinguistics and Sociolinguistics, The Ohio State University, Ohio, 1977 .

* Glucksberg, Sam, and Danks, Joseph, Experimental Psycholinguistics an Introduction, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, New Jersey, 1975 .

* Herriot, Peter, An Introduction to the Psychology of Language, Methuen and Co Ltd, London, 1970 .

* Miller, George, Communication, Language and Meaning, Basic Books, Inc, Publishers, New York, 1973 .

* Platts, Mark, Ways of Meaning, Routledge and Kegan Paul, London, 1997 .

* Prucha, J, Information sources in Psycholinguistics, Mouton, The Houge, Paris, 1979.